العقل

تعريفه، منزلته، مجالاته، ومداركه

لفضيلة الدكتور/ عبدالقادر بن محمد بن عطا صوفي [1]

الحمد لله الذي أوجدنا من العدم، وجعل أمَّتنا خيرَ الأمم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، ندب أصحابَ العقول إلى إعمال عقولهم، وحثَّهم على التفكُّر في مخلوقاته التي تُحيط بهم.

والصلاة والسلام على نبيِّنا محمَّدٍ أفضل من عقل وفهِم، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم. وبعد:

فإنَّ ديننا الإسلاميَّ لم يحجر على العقول، أو يُهملها، بل رفع من شأنها، وأعلى من قدرها، وجعلها مناط التكليف، وفرَّق بين الذين يعقلون، والذين لا يعقلون.

والعقلُ له منزلةٌ في الإسلام لا تُنكر، ومجالاته فيه كثيرةٌ، وجديرة بأن تُذكر.

وقبل الحديث عن منزلته، والخوض في مجالاته ومداركه، لا بُدّ من وقفةٍ أُبيِّن بها المراد به في اللغة والاصطلاح.

---

(١) أستاذ الفرق والعقيدة والوافدات الفكرية المساعد بكلية المعلمين بأبها.

وهذا يستلزم تقسيم البحث إلى ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : تعريف العقل لغة واصطلاحاً :

أولاً : العقل في اللغـــة :

العقل في اللغة يُطلق على المنع والحَبْسِ . يُقال : اعْتُقِلَ الرجلُ، إذا حُبسَ .

ومرض فلانٌ، فاعْتُقِلَ لِسَانُه، إذا امتنع عن الكلام، فلم يَقْدِر عليه[١] .

ومنه قول ذي الرُّمَّة[٢] :

ومُعْتَقَلُ اللسانِ بغيرِ خَبْلٍ يَمِيدُ كأنَّه رجُلٌ أميمُ[٣]

ويُقال : أعْطِنِي عَقُولاً أشْرَبُهُ، إذا طَلَبَ دواءً يُمْسِكُ بَطْنَه[٤].

ويُقال كذلك : عَقَلْت البعيرَ أَعْقِلُهُ عَقْلاً، إذا منعته من الحركة، وذلك بأن تَثْنِي وَظِيفَه مع ذراعه، فتشدّهما جميعاً في وسط الذراع[٥] .

ومن هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم لصاحب الناقة :

---

(١) الزمخشريّ ، ١٤٠٩هـ ، مادة "عقل" .

(٢) هو غَيْلانُ بن عُقبة ، أبو الحارث العدويّ . من فحول الطبقة الثانية. وأكثر شعره تشبيبٌ وبُكاءٌ على الأطلال . مات سنة ١١٧هـ . (الزركلي ، ١٩٨٤م ، ١٢٤/٥) .

(٣) الحربي ، ١٤٠٥هـ ، ١٢٣٢/٣ ، قوله "جعل دية المقتولة على عاقلة القاتلة" .

(٤) الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ، ١٤٠٧هـ ، مادة "العَقْلُ" .

(٥) الجوهري ، ١٤٠٢هـ ، مادة "عقل" .

((أَعْقِلْهَا وتَوَكَّلْ))[١] .

وذلك الحبل الذي تُعقل به الناقة يُقال لـه العِقَالُ ، والجمع عُقُلٌ[٢] .

ومنه قـولـه صلى الله عليه وسلم عن القرآن الكريم : ((لَهُوَ أشَدُّ تَفَصياً من الإبـلِ في عُقُلِهَا))[٣] .

وإنَّما يُعقل البعير لحبسه ، ومنعه من الهرب ، والشرودِ .

واعْـتَقَلْت الشـاةَ ، إذا وضـعت رجلـها بـين فخـذيك ، أو سـاقيك ، لتحلُبَها[٤] ؛ فأنت بفعلك هذا تمنعها من الحركة .

وعَقَـلَ الـوَعِلُ ، إذا امتنع في الجبل العالـي ، يَعْقِـلُ عُقُولاً . والمكان الممتنعُ فيه يُسمَّى "المَعْقِل"[٥] . وبه سُمِّيَ الوَعِلُ عاقِلاً .

يقول النابغة الذبياني[٦] :

وقد خِفْتُ حتَّى ما تَزِيدُ مَخَافَتِي على وَعِلٍ في ذِي المَطَارَةِ عاقِلِ[٧]

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه ، ك القيامة ، باب رقم ٦٠ ، من حديث أنس رضي الله عنه ، وقال : "هذا حديثٌ غريبٌ من حديث أنس ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وقد صححه الألباني في "صحيح سنن الترمذي" ، ١٤٠٨هـ ، ٣٠٩/٢ ، ح ٢٠٤٤ .

(٢) الجوهري ، مصدر سابق ، مادة "عقل" .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه . (البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب استذكار القرآن وتعاهده . ومسلم ، صلاة المسافرين ، باب فضائل القرآن).

(٤) الزمخشري ، مصدر سابق ، مادة "عقل" .

(٥) الحربي ، مصدر سابق .

(٦) هو زياد بن معاوية بن ضباب ، أبو أمامة الذبياني . شاعرٌ جاهليٌ من الطبقة الأولى من أهل الحجاز . له شعرٌ كثيرٌ ، وعُمِّرَ طويلاً . (الزركلي ، مرجع سابق ، ٤٥/٣ - ٥٥) .

(٧) النابغة : ديوانه ، ١٤٠٥هـ ، ص ١٢٩ .

وتُسمَّى الديةُ عَقْلاً ومَعْقُلَةً ؛ فيُقال : القومُ على مَعَاقِلِهِمُ الأولى ؛ أي على ما كانوا يَتَعَاقَلُون في الجاهليَّة، كذا يتعاقلون في الإسلام[١] .

وقد جاء في الحديث أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب بين المهاجرين من قريش، والأنصارِ، أنَّهم على رَبَاعَتِهِم[٢] ؛ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الأُوْلَى"[٣] .

وعَقَلْتُ عن فُلانٍ ؛ أي غَرِمْتُ عنه جنايَته إذا لَزِمَتْهُ ديةٌ، فأديتَها عنه[٤] . وعاقِلةُ الرجل: عَصَبَتُهُ ؛ وهم القرابة من قِبَل الأب الذين يُعطون دِيَةَ من قتله خطأً[٥] .

ويشهد لهذا المعنى، ما جاء في حديث جابر بن عبد الله الأنصاريّ رضي الله عنهما: ((أنَّ امْرَأَتَيْنِ قَتَلَتْ إحْدَاهُمَا الأُخْرَى، فجَعَلَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم دِيَّةَ المَقْتُولَةِ على عَاقِلَةِ القَاتِلَةِ))[٦] .

وإنَّما أطلقوا على الدية، وأدائها عَقْلاً ؛ لأنَّ الإبل كانت تُعقل

---

(١) الجوهريّ، مصدر سابق ، مادة "عقل" .

(٢) أي أمرهم الذي كانوا عليه . (الفيروزآبادي، مصدر سابق، ص ٩٢٨، ٩٢٩).

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢٧١/١ من حديث ابن عباس، و٢٠٤/٢ من ابن عمرو رضي الله عنه .

(٤) الزمخشري، مصدر سابق، مادة "عقل" .

(٥) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مصدر سابق، مادة "العقل" .

(٦) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الديات، باب دية الجنين . وصححه الألباني في "صحيح سنن أبي داود"، ١٤٠٩هـ، ٨٦٥/٣ ، ح ٣٨٢٦ .

- تُحبَس - بفناء وليّ المقتول[١] .

والعَقِيلَةُ هي كريمةُ الحيّ، وسُمِّيَت بذلك لحَبْسِهَا نَفْسَها في بيتها[٢] .

يقول امرؤ القيس[٣] :

عَقِيلَةُ أَترابٍ لها لا دميمةٌ ولا ذاتُ خَلْقٍ إن تَأَمَّلْتَ جَانبِ[٤]

أي ليست دميمةً، ولا قصيرةً .

وخُلاصة القول : أنَّ العقل في اللغة يُطلق على المنع والحبس .

ووجه تسمية العقل بهذا الاسم : كونه يمنع صاحبَه عن التورُّط في المهالك، ويحبسُه عن ذميم القول والفعل[٥] .

والفَهْمُ والبيانُ يُسمَّى عقلاً أيضاً ؛ "لأنَّه عن العقل كان، فيقول الرجلُ للرجلِ : أعَقَلْتَ ما رأيتَ، أو سمِعْتَ ؟ فيقول : نعم، يعني : أنِّي قد فَهِمْتُ، وتبيَّنْتُ . والعربُ إنَّما سمَّتِ الفهمَ عقلاً ؛ لأنَّ ما فَهمتَه فقد قيَّدْتَه بعقلك، وضَبَطتَهُ "[٦] .

وهذا التعريف اللغويّ للعقل يُوضِّح مراد أمير المؤمنين عمر بن

---

(١) الجوهري، مصدر سابق، مادة "عقل" .

(٢) الحربي، مصدر سابق، قوله "اعقلها وتوكّل" .

(٣) هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي . أشهر شعراء العرب، وأحد شعراء المعلّقات. ولد بنجدٍ، ومات بأنقرة - في تركيا -. (الزركلي، مرجع سابق، ٢/١١-١٢) .

(٤) امرؤ القيس : ديوانه، ١٤٠٤هـ ، ص ٣٠ .

(٥) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ١٣٦٦هـ، مادة "ع ق ل" .

(٦) المحاسبيّ ، ١٤٠٦هـ ، ص ٢٤ .

الخطاب رضي الله عنه من قوله "عَقَلْنَاهَا"، في قوله : (إنَّ الله قد بَعَثَ محمَّداً صلى الله عليه وسلم بالحقِّ، وأنزلَ عليه الكتاب، فكان ممَّا أنزلَ عليه آيةَ الرَّجْمِ ؛ قرأناها، ووَعَيْنَاها، وعَقَلْنَاهَا)[١].

و"عَقَلْنَاهَا" : أي فهمناها، وضبطناها، وأمسكناها .

فما سُمِّي العقل عقلاً إلاَّ لأنَّه يُمسك ما عَلِمَه، ويضبطه، ويفهمه ؛ فيُقال : عَقَلَ الشيءَ، إذا فَهِمَهُ، فهو عَقُولٌ .

وعَقَلَ الشيءَ، إذا عَلِمَهُ، أو عَلِمَ صفاتِه ؛ من حسنٍ وقُبح، وكمالٍ ونقصان، فأمسكها، وأمكن أن يُميِّز بين القبيح والحسن، والخير والشرّ[٢] .

فالعاقل خلاف الجاهل ؛ يحبس نفسَه، ويمنعها عمَّا يُوبقها، ويردّها عن هواها، ويُمسك ما يعلمه، ويُميِّز بين ما ينفعه وما يضرّه، في عاجله وآجله .

ثانياً : تعريف العقل اصطلاحاً :

تنوَّعت التعريفات المَقولةُ في العقل، واختلفت، وأغلبها عليه ملاحظات[٣] .

والتعريفُ الذي اخترتُه تفصيليٌّ، يشتمل على أربعة معانٍ قيلت في

(١) صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب رجم الثيّب في الزنى .
(٢) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مصدر سابق، مادة "العقل" .
(٣) ابن حسن، ١٤١٢هـ ، ١/١٥٧، ١٥٨ .

العقل، لا ينفكّ واحدٌ منها عن الآخر، متى فُقد واحدٌ منها، قيل لصاحبه: ليس له عقلٌ :

المعنى الأوَّل : الغريزة التي في الإنسان، والتي يمتاز بها عن سائر الحيوان؛ فبها يعلم، وبها يعقِل، وبها يُميِّز، وبها يقصد المنافع دون المضارّ.

يقول أبو حامد الغزالي[1] (ت ٥٠٥هـ) عن هذا المعنى، إنَّه : (الوصفُ الذي يُفارق الإنسان به سائر البهائم، وهو الذي استعدّ به لقبول العلوم النظريَّة، وتدبير الصناعات الخفيَّة الفكريَّة)[2] .

ويقول الماورديّ[3] (ت ٤٥٠هـ): (فالغريزيّ هو العقل الحقيقيّ، وله حدٌّ يتعلَّق به التكليف، لا يُجاوزه إلى زيادة، ولا يقصُر عنه إلى نقصان، وبه يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان)[4] .

ويقول الحارث بن أسد المحاسبيُّ[5] (ت ٢٤٣هـ) : (فأمَّا هو في المعنى

---

(١) هو محمّد بن محمّد الطوسيّ، أبو حامد الغزالي . اشتغل بعلم الكلام ردحاً من الزمن، ثمّ كانت خاتمة أمره الإقبال على الحديث ومجالسة أهله. مات سنة خمسٍ وخمسمائة. (ابن خلكان، د . ت، ٤/٢١٦-٢١٩ . والذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٤٠٢هـ ، ١٩/٣٢٢-٣٤٦) .

(٢) الغزالي ، ١٤٠٦هـ ، ص ٥٨ .

(٣) علي بن محمد، أبو الحسن الماوردي . من العلماء الباحثين، والمؤلّفين المكثرين . أقضى قضاة عصره. مات سنة ٤٥٠هـ . (الزركلي، مرجع سابق، ٤/٣٢٧) .

(٤) الماوردي ، ١٤٠٧هـ ، ص ٦ .

(٥) أبو عبد الله . من شيوخ الصوفيَّة . كان ينتسب إلى قول ابن كُلّاب في نفي الصفات

والحقيقة لا غيره، فهو غريزة وضعها الله سبحانه في أكثر خلقِهِ، لم يطلع عليها العباد بعضهم من بعض، ولا اطَّلعوا عليها من أنفسهم برؤيةٍ، ولا بحسّ، ولا ذوقٍ، ولا طعمٍ. وإنَّما عرَّفهمُ الله سبحانه وتعالى إيَّاه بالعقل منهم؛ فبذلك العقل عرفوه، وشهدوا عليه بالعقل الذي عرفوه به من أنفسهم، بمعرفة ما ينفعهم، ومعرفة ما يضرُّهم)[١].

فبإمكان العباد أن يطّلعوا بعقولهم على هذه الغريزة؛ أهي موجودة عند فلانٍ، أو ليست كذلك، بالنَّظر إلى أفعال جوارحه؛ فـ(إذا رأوا من أفعاله ما يدلُّهم على أنَّه قد عَرَف ما ينفعه في دنياه وما يضرّه، وإذا رأوه طالباً عاملاً فيما ينفعه من دنياه، مجانباً لما يضرّه من دنياه، سمّوا من كان كذلك : عاقلاً، وشهدوا له أنَّ له عقلاً، وأنَّه لا مجنون، ولا تيَّاه، ولا أحمق)[٢].

ويُمكن الاستئناس في بيان بعض هذه الصفات - التي تُمكن ملاحظتها في العاقل - بقول ابن القِرِّيَّة[٣] (ت ٨٤هـ) : (الرجالُ ثلاثةٌ :

الاختياريَّة. مات ببغداد سنة ٢٤٣هـ . (الخطيب البغدادي، د. ت، ٢/٢١٤-٢١٦ . والسلميّ، ١٣٨٠هـ ، ص ٥٦-٦٠) .

(١) المحاسبيّ ، مصدر سابق، ص ١٧ .

(٢) المحاسبي ، مصدر سابق ، ص ١٨ .

(٣) هو أيوب بن زيد الهلالي، المعروف بابن القِرِّيَّة، والقِرِّيَّة أمُّه. معدودٌ من جملة خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة. قتله الحجَّاج بن يوسف سنة ٨٤هـ. (الزركلي، مرجع سابق، ٢/٣٧) .

عاقلٌ، وأحمق، وفاجر؛ فالعاقل إن كُلِّمَ أجاب، وإن نَطَقَ أصاب، وإن سَمِعَ وَعَى. والأحمقُ إن تكلَّم عَجِلَ، وإن تحدّث وَهِلَ[١]، وإن حُمِلَ على القبيحِ فَعَلَ..)[٢].

وكلام ابن تيمية عن الفرق بين المجنون والعاقل يُشبه هذا الكلام، ومنه قوله: (فالمجنون الذي لا يُميِّز بين الدراهم والفلوس، ولا بين أيام الأسبوع، ولا يفقه ما يُقال له من الكلام ليس بعاقل. أمَّا من فَهِمَ الكلامَ، وميَّز بين ما ينفعه وما يضرّه، فهو عاقلٌ)[٣].

يقول أحد الشعراء معدِّداً بعضَ الصفات التي يُستدلُّ بها على عقل العاقل:

يُعْرَفُ عقلُ المرءِ في أربعٍ ... مِشْيَتُهُ أوَّلُها، والحَرَكْ
ودَوْرُ عَيْنَيْهِ، وألفاظُهُ ... بعدُ عليهِنَّ يدور الفَلَكْ
وربَّما أخْلَفْنَ إلاَّ التي ... آخِرُهَا منهنَّ سُمِّينَ لك[٤]

فهذه بعضُ صفاتِ مَنْ وَهَبَهُ اللهُ المعنَى الأوَّلَ من معاني العقل، - وهو الغريزة -: فَهْمُ الخطاب، وردّ الجواب، وصلاحُ المِشية، واتّزان الحركات، واستقرارُ العينين، ونحو ذلك.

---

(١) ضَعُفَ، وجَبُنَ، وفَزِعَ. (أنيس ورفاقه، ١٩٧٢م، ص ١٠٦٠).
(٢) ابن أبي الدنيا، ١٤٠٩هـ، ص ٤٧.
(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٤٠٤هـ، ٢٨٧/٩.
(٤) ابن عبد ربه، ١٤٠٤هـ، ١٠٦/٢.

وهذه الغريزة - التي هي إحدى معاني العقل - شرطٌ في المعقولات والمعلومات، وهي مناط التكليف؛ فإذا عُدِمَتْ في الإنسان، سقطت عنه التكاليف الشرعيَّة.

وفي ذلك يقول الحارث المحاسبيّ (ت ٢٤٣هـ) : (فالعقل غريزةٌ، جعلها الله في الممتَحَنين من عباده؛ أقام به على البالغين للحُلُم الحجَّةَ، وأنَّه خاطبهم من جهة عقولهم، ووعد، وتوعَّد، وأمر، ونهى، وحضَّ، ونَدَبَ)[١].

وهذا العقل المشروط في التكليف لا بُدَّ أن يُكوِّنَ عُلوماً يُميِّزُ بها الإنسانُ بين ما ينفعه وما يضرُّه.

وعن هذا المعنى نفسه، يقول ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) : (العقلُ شرطٌ في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل، ولكنَّه ليس مستقلاً بذلك، لكنَّه غريزةٌ في النَّفس، وقوَّة فيها، بمنزلة قوَّة البصر التي في العين)[٢].

ويُلاحَظ تشبيهه العقلَ بالبصرِ.

وقد سبقه إلى هذا التشبيه البليغ قومٌ، قالوا عن العقل : (هو نورٌ وضعه الله طبعاً وغريزة، يُبصر به، ويُعبّر به. نورٌ في القلب، كالنُّور في العين، وهو البصر..)[٣].

---

(١) المحاسبي ، مصدر سابق ، ص ١٩ .
(٢) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، مصدر سابق ، ٣٣٨/٣ .
(٣) المحاسبي ، مصدر سابق ، ص ١٩ .

لكنّ هذا البصر إن اتصل به نور الشمس، أو ضوء النَّار، صار أشدّ قوَّة وإبصاراً، وإن انفرد بنفسه، ضَعُفَ.

كذلك صاحب العقل إن وصله بنور الإيمان والقرآن، اهتدى وسَعُدَ. وإذا لم يتصل بهما عجز عن إدراك الأمور التي لا يُمكن أن يستقلّ بإدراكها.

وهذا معنى قول ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) عن العقل، إنَّه: (بمنزلة قوَّة البصر التي في العين؛ فإن اتّصل به نور الإيمان والقرآن، كان كنور العين إذا اتَّصل به نور الشمس والنَّار. وإن انفردَ بنفسه، لم يُبصر الأمورَ التي يعجز وحدَه عن دَرْكِهَا)[1].

وهذا التشبيه الرائع من ابن تيمية - ومِمَّن سبقه - ينطبق على أولئك الذين اعتصموا بالكتاب والسنَّة، وعلى مخالفيهم الذين اتكلوا على عقولهم، معرضين عن الاهتداء بنور الوحي، فعموا عن الحقّ، وضلّوا عنه، وآل أمرهم إلى التخبُّط والحيرة.

ويصدق عليهم قول الله عزوجل عن بني آدم عليه السلام: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مصدر سابق، ٣/٣٣٩.

ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾[١].

المعنى الثاني: العلومُ التي تُلازم الإنسان العاقل؛ فتقع في نفسه ابتداءً، ولا تنفكّ عن ذاته؛ كالعلم بالممكنات، والواجبات، والممتنعات.

وهذا معنى من معاني العقل؛ إذ ثمَّة علوم (تخرج إلى الوجودِ في ذات الطفل المميِّز، بجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات؛ كالعلم بأنّ الاثنين أكثر من الواحد، وأنَّ الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقتٍ واحد)"[٢]، وأنَّ (الشيء لا يخلو من وجودٍ أو عدم، وأنَّ الموجود لا يخلو من حدوثٍ أو قِدَم، وأنَّ من المحال اجتماع الضدَّين)[٣]. وهذه العلوم "تشمل جميعَ العقلاء"[٤].

المعنى الثالث: العلوم المستفادة من التجارب، والمكتَسَبَةُ بواسطة العقل، والتي يضبطها الإنسان، ويُمسكها[٥].

وهذا العقل يُعدُّ نتيجةً للعقل الغريزيّ، وهو (نهاية المعرفة، وصحّة السياسة، وإصابة الفكرة. وليس لهذا حدٌّ؛ لأنَّه ينمو إن استُعمل، وينقُص إن أُهمل"[٦].

---

(١) سورة طه، الآيات ١٢٣ - ١٢٦.
(٢) الغزالي، مصدر سابق، ص ٥٩.
(٣) الماوردي، مصدر سابق، ص ٧.
(٤) ابن حسن، مرجع سابق، ١٥٩/١.
(٥) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ١٤٠٣هـ، ٨٥/٤.
(٦) الماوردي، مصدر سابق، ص ٧.

وعنه يقول الغزالي (ت ٥٠٥هـ) : (الثالث : علومٌ تُستفاد من التجارب بمجاري الأحوال ؛ فإنَّ من حنَّكَتْهُ التجاربُ، وهذَّبَتْهُ المذاهبُ، يُقال إنَّه عاقلٌ في العادة، ومن لا يتصف بهذه الصفة، يُقال إنَّه غبيٌّ، غمرٌ، جاهلٌ . فهذا نوعٌ آخر من العلوم يُسمَّى عقلاً)[١].

ونماء هذا النوع يكون بأحد أمرين ، هما :

١- كثرة الاستعمال ؛ كالذي يحصل لذوي الأسنان من الحنكة، وصحَّة الرؤية، بكثرة التجارب، وممارسة الأمور .

٢- وفرط الذكاء ، وحُسْن الفطنة[٢] .

ولقد كانت العرب تقول : "العقلُ : التجاربُ"[٣]، وقد سُئل بعضهم عن العقل، فقال : "لُبٌّ أَعَنْتَهُ بتَجْرِيبٍ"[٤] .

وهذه التجارب ليس لها غاية، والعقل منها في ازدياد، كما قال أحدهم :

ألم تَرَ أنَّ العقلَ زَيْنٌ لأهْلِهِ وأنَّ كمالَ العقلِ طولُ التجاربِ[٥]

فكلَّما كثرت تجارب الإنسان، زاد عقلُه، بسبب ازدياد علومه .

---

(١) الغزالي ، مصدر سابق ، ص ٦٠ .
(٢) الماوردي ، مصدر سابق ، ص ٧، ٨ .
(٣) ابن أبي الدنيا ، مصدر سابق ، ص ٥٢ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٠ .
(٥) ابن عبد ربه ، مصدر سابق ، ١٠٩/٢ .

ومكان ضبط هذه العلوم هو القلبُ ؛ إذ هو وعاء العلم .

وإلى هـذا العقـل أشـار معاويـة رضـي الله عـنه بقـوله : (العقـلُ عقـلان، عقـلُ تجاربٍ، وعقـلُ نَخِيـزَةٍ . فإذا اجتمعا في رجلٍ، فـذاك الذي لا يُقام له . وإذا تفرَّدا، كانت النخيزةُ أولاهما)[١] .

وهـو يُشـبه قـول مـن قـال : (العقل ضربان : عقلُ الطبيعة، وعقل التجربة . وكلاهما يُحتاج إليه، ويُؤدِّي إلى المنفعة)[٢] .

فعقـل النخيـزة[٣] - المذكـور في قـول معاويـة رضـي الله عـنه -، هو الغريزة التي في الإنسان، والتي يمتاز بها عن سائر الحيوان. وعقل التجارب هو العلوم المكتسبة بواسطتها .

وممَّـا تنبغـي ملاحظـته : (أنَّ العقـل المكتسـب لا يـنفكّ عـن العقـل الغريـزيّ ؛ لأنَّه نتيجة منه . وقد ينفكّ العقل الغريزيّ عن العقل المكتَسَب، فـيكون صـاحبُه مسـلوبَ الفضـائل، موفـورَ الـرذائل ؛ كالأنـوَكِ[٤] الذي لا تجد لـه فضيلة، والأحمقِ الذي قلّما يخلو من رذيلة)[٥] .

---

(١) ابن أبي الدنيا ، مصدر سابق ، ص ٥٠ .

(٢) ابن عبد ربه ، مصدر سابق ٢/١٠٨ .

(٣) ذكر ابن فارس في كتابه "اللفيف في معرفة كلّ معنى لطيف" ص ٦٩ ، أنَّ "نخيزة" من مرادفات كلمة "طبيعة" .

(٤) الأحمق . (الزمخشري ، مصدر سابق ، ص ٦٥٨) .

(٥) الماوردي ، مصدر سابق ، ص ١٤ ، ١٥ .

المعنى الرابع : الأعمال التي يستوجبها العلم ؛ من إيمان بالله، وتصديق بكتبه، ورسله، والتزام بأمره ونهيه ؛ كحَبْس النفس على الطاعات، وإمساكها عن المعاصي .

وهذا معنى رابع من معاني العقل، وعنه يقول ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) : (..لفظ العقل يُطلق على العملِ بالعلمِ)[١] .

فالعمل من لوازم العقل ؛ لأنَّ صاحب العقل إذا لم يعمل بعلمه، قيل : إنَّه لا عقلَ لـه[٢] ؛ "فإنَّ العقل مستلزمٌ لعلومٍ ضروريَّةٍ يقينيَّةٍ، وأعظمها في الفطرة : الإقرار بالخالق"[٣] .

فحالُ مَنْ لم يعمل بعلمه، أنَّه صاحبُ عقلٍ يُمسكُ علوماً ضروريَّةً فطريَّةً، يعرِف بها ربَّه عزوجل، ولكنّ هواه صدَّه عن اتباع موجب العقل، فصار لا عقل له بهذا الاعتبار .

وقد اتّصف هذا بمعاني العقل الثلاثة المتقدِّمة ؛ فمعه غريزة العقل التي فرَّق الله بها بين العقلاء والمجانين، ومعه علومٌ ضروريَّة فطريَّة، ولديه علومٌ مكتسَبَةٌ ؛ فقد جاءته الرسل بالبيِّنات، ولكنَّه لم يحظ بشرف الاتّصاف بهذا المعنى الرابع ؛ وهو العمل بعلمه، لذلك يُقال عنه : إنَّه غيرُ عاقلٍ عن الله عزوجل .

---

(١) ابن تيمية ، بغية المرتاد ، ١٤٠٨هـ ، ص ٢٥٠ ، ٢٥١ .
(٢) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، مصدر سابق ، ٣٣٦/١٦ .
(٣) المصدر نفسه .

وقد وَصَفَ الله عزوجل في كتابه رِجالاً بالعقل، وأخبر في الوقت نفسه أنَّهم لم يستفيدوا منها؛ فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾[1].

فهؤلاء قد عَقَلُوا البيان الذي لزمتهم من أجله الحجَّة، لكنَّهم لم يعملوا بما عقلوا؛ فحالهم أنَّ لهم عقولاً يعرفون بها الحقَّ، ولكنَّ هواهم صدَّهم عن اتباع موجب العقل، فلا عقل لهم بهذا الاعتبار[2].

وقد وصفهم سبحانه وتعالى في موضعٍ آخر بالعقل الذي يميِّزون به، ويعقلون به أمورَ الدنيا كلَّها في الجليل والدقيق، لكنَّهم للآخرة لا يعقلون؛ فقال عزوجل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[3]. فهم "بالدنيا أهل بصرٍ وسمع وعقل. فلم يَعْنِ أنَّهم صُمٌّ خُرسٌ مجانين، وإنَّما عذَّبهم لأنَّهم يعقلون. ولو تدبَّروا ما يرون ويسمعون من الدلائل عليه؛ من آيات الكتاب، وآثار الصَّنعة، واتصال التدبير، الذي يدلّ على أنَّه واحدٌ لا

(١) سورة الأحقاف، الآية ٢٦ .

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مصدر سابق، ١٦/٣٣٧ .

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٧٩ .

شريك له"[١] ؛ أي لدلَّهم ذلك على أنَّه المعبود بحقّ وحدَه .

فالعاقل - كما قال سفيان بن عيينة[٢] (ت ١٩٨هـ)- : "ليس الذي يعرف الخيرَ من الشرِّ، ولكنّ العاقل الذي يعرفُ الخيرَ فيَتَّبعُهُ، ويعرِفُ الشرَّ فيَجْتَنِبُهُ"[٣].

لذلك لمّا وُصِفَ رجلٌ - ممتنعٌ عن الدخول في الإسلام - بالعقل أمام أحد العلماء، قال : (مَه، إنَّما العاقل مَنْ وَحَّدَ الله، وعَمِلَ بطاعتِهِ)[٤] .

والله تعالى قد حكى عنهم قولَهم - وهم في النَّار - : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝ ﴾[٥].

"وقد كانت لهم عقولٌ وأسماع، لزمتهم بها الحجَّة لله عزوجل، وإنَّما عنى عزوجل أنَّها لم تعقِل عن الله فَهْمَاً لما قال ؛ من عظيم قدرِه، وقدر عذابه، فندمت، وتأذت بالويل والندم، لا لأنَّها لم تكن تسمع ولا تعقل، ولا كانوا مجانين، ولكن يعقلون أمر الدنيا، ولا يعقلون عن الله ما أخبر عنه، وتوعَّد ووعد"[٦] .

---

(١) المحاسبي ، مصدر سابق ، ص ٣١ .
(٢) ابن أبي عمران ؛ ميمون الهلالي . إمام، حجّة، ثقة، حافظ، فقيه. مات سنة ثمان وتسعين ومائة، وله إحدى وتسعون سنة. (ابن حجر، ١٤٠٦هـ، ص ٢٤٥) .
(٣) ابن أبي الدنيا ، مصدر سابق ، ص ٥٩ .
(٤) الأصفهاني ، ١٤٠٨هـ ، ص ٩٦ .
(٥) سورة الملك، الآية ١٠ .
(٦) المحاسبيّ ، مصدر سابق ، ص ٣١ .

وليس عدم العقل في عدم الإيمان فحسب، بل عدم العقل في ارتكاب المعاصي، وتضييع الفرائض؛ فمن ضيَّع الفرائض، وارتكب المحرَّمات، لم يَعْقِلْ عظيم قدر الله في جلاله وهيبته، وعظيم قدر ثوابه وعقابه في القيام بفرائضه، وارتكاب معاصيه؛ فالعاقل من يَغلِبُ إيمانُه هواه، وحلمُه جهلَه. لذلك قال عامر بن عبد قيس[١] (ت ٥٥هـ): (إذا عَقَلَكَ عَقْلُكَ عمَّا لا ينبغي، فأنت عاقلٌ)[٢].

وسُئل أعرابيٌّ: (أي منافع العقل أعظم؟ قال: اجتناب الذنوب)[٣].

فالعملُ ثمرةُ العقل وفائدتُه، ولا عقلَ لمن لم يعمل بموجب ما دلَّه إليه عقلُهُ.

إذا تبيَّنْتَ هذا، فاعلم أنَّ العقلَ يُطلق على كلّ هذه المعاني الأربعة مجتمعةً؛ الغريزة، والعلوم الضروريَّة، والعلوم المكتسبة، والعمل بالعلم.

ويشهد لهذا قول ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) عن العقل: (هو علمٌ، أو عملٌ بالعلمِ، وغريزةٌ تقتضي ذلك)[٤].

---

(١) هو عامر بن عبد الله، المعروف بابن عبد قيس العنبريّ. تابعيٌّ من العُبَّاد. مات ببيت المقدس في خلافة معاوية رضي الله عنه. (الزركلي، مرجع سابق، ٣/٢٥٢-٢٥٣).

(٢) الماوردي، مصدر سابق، ص ٩.

(٣) ابن عبد ربه، مصدر سابق، ٢/١١١.

(٤) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، ١٤٠٢هـ، ١٠/٣٠٢.

فالعقل لا يُسمَّى به مجرَّد العلم الذي لم يَعمل به صاحبُه، ولا العمل بلا علمٍ؛ بل إنَّما يُسمَّى به العلمُ الذي يُعملُ به، والعمل بالعلم، ولهذا قال أهل النَّار: ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[2][3].

المسألة الثانية : منزلة العقل في الإسلام :

لقد امتنَّ الله عزوجل على الإنسان بأن منحه نعمة العقل الذي يُميِّزه عن سائر الحيوانات؛ فقال: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[4]؛ فبالسمع تسمعون، وبالأبصار تُبْصِرون، وبالأفئدة تعقلون، ولكن قليلاً ما تشكرون[5].

فالأفئدة هي محلّ العقول، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[6]؛ فجعل العقل في القلب، ثمّ أخبر أنَّه يُتغطَّى على هذا العقل الذي في الصدر.

---

(١) سورة الملك، الآية ١٠.

(٢) سورة الحج، الآية ٤٦.

(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مصدر سابق، ٢٨٦/٩، ٢٨٧.

(٤) سورة الملك، الآية ٢٣.

(٥) ابن جرير الطبري، ١٤١٢هـ، ١٧٢/١٢.

(٦) سورة الحج، الآية ٤٦.

يقول الإمام الشوكاني[١] (ت ١٢٥٠هـ) : (وأُسْنِدَ التعقُّلُ إلى القلوبِ لأنَّها محلُّ العقلِ ، كما أنَّ الآذان محلّ السمع)[٢] .

ويُستأنس لهذا بقول الفاروق عمر رضي الله عنه عن ابن عبَّاس - رضي الله عنهما - : (ابن عبَّاس فتى الكهول، له لسانٌ سؤول، وقلبٌ عقول)[٣] .

وإضافة العربِ الشيءَ إلى الشيءِ، إمَّا لكونه هو هو، أو مكانَه . وليس القلبُ عقلاً بإجماعٍ . لم يبقَ إلا أنَّه محلُّ العقلِ، بإضافة الشيءِ إلى محلِّه . ومَنْ خَلَقَ العقلَ أعلمُ بمحلِّه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[٤][٥] .

فالعقل محلُّه القلب، وهو نعمةٌ، وهِبَةٌ من اللهِ، أعطاه عبادَه بلا عِوَضٍ .

وهذه النعمة هي التي ترفع صاحبها إلى مستوى التكاليف الشرعيَّة الإلهيَّة، وتؤهّله لإدراكها وفهمها ؛ فالعقل مناط التكليف .

يقول أبو الوفاء ؛ ابن عقيل[٦] (ت ٥١٣هـ) موضِّحاً معنى التكليف

---

(١) هو محمد بن علي بن محمد الشوكاني. فقيهٌ، مجتهد، عالم من كبار علماء اليمن. مات سنة ١٢٥٠هـ . (الزركلي، مرجع سابق، ٢٩٨/٦) .

(٢) الشوكاني ، ١٣٨٣هـ ، ٤٥٩/٣ .

(٣) ابن عبد البر ، ١٣٩٨هـ ، ٣٥٢/٢ .

(٤) سورة الملك، الآية ١٤ .

(٥) ابن عقيل الحنبليّ ، ١٤٢٠هـ ، ٢٧/١ .

(٦) هو عليّ بن عقيل بن محمَّد البغدادي الحنبليّ. من متكلِّمي الحنابلة. مات سنة ٥١٣هـ. =

: (وهو المطالبة بالفعل أو الاجتناب له، وذلك لازمٌ في الفرائض العامَّة؛ نحو التوحيد، والنبوَّة، والصلاة، وما جرى مجرى ذلك، لكلِّ عاقلٍ، بالغٍ...)[١] . فالتكليف للعاقل .

ويقول الآمديّ[٢] (ت ٦٣١هـ) : (اتفق العقلاء على أنَّ شرطَ المكلَّفِ أن يكون عاقلاً، فاهِماً للتكليف؛ لأنَّ التكليف خطابٌ، وخطابُ من لا عقلَ له ولا فهمَ مُحالٌ؛ كالجماد، والبهيمة)[٣] .

ويقول الطُّوفيّ[٤] (ت ٧١٦هـ) : (من شروط المكلَّف : العقلُ، وفهمُ الخطاب؛ أي : يكون عاقلاً، يفهمُ الخطابَ، ولا بُدَّ منهما جميعاً)[٥] .

فالمكلَّف لا بُدّ أن يكون عاقلاً يفهم الخطاب. ومن هنا لم يُكلَّف المجنون؛ "لأنَّ مقتضى التكليف: الطاعة والامتثال. ولا تمكن إلا بقصد

= (الذهبي، السير، مصدر سابق ، ١٩/٤٤٣-٤٥١. الزركلي، مرجع سابق، ٤/ ٣١٣) .

(١) ابن عقيل، مصدر سابق، ١/٦٨ .

(٢) علي بن أبي محمد بن سالم، أبو الحسن الآمديّ . أصوليّ، من رؤوس الأشعريَّة، توفي سنة ٦٣١هـ . (الذهبي، السير، مصدر سابق، ٢٢/٣٦٤. والزركلي، مرجع سابق ، ٤/٣٣٢) .

(٣) الآمديّ، ١٣٨٨هـ ، ١/١٥٠ .

(٤) هو سليمان بن عبد القويّ بن عبد الكريم الطوفيّ، أبو الربيع الصرصريّ . من فقهاء الحنابلة . مات سنة ٧١٦هـ . (الزركلي، مرجع سابق، ٣/١٢٧، ١٢٨) .

(٥) الطوفيّ ، ١٤١٩هـ ، ١/١٨٠ .

الامتثال. وشرط القصد: العلمُ بالمقصود، والفهمُ للتكليف؛ إذ مَنْ لا يفهم، كيف يُقال له: افْهَمْ، ومن لا يسمع، لا يُقال له: تكلَّم. وإن سَمِعَ ولم يفهم كالبهيمة، فهو كمن لا يسمع...)[١].

فالعقلُ هو الذي يرفع الإنسان إلى مستوى التكاليف الإلهيَّة.

وليس ثمة عقيدة تقوم على احترام العقل الإنسانيّ، وتكريمه، والاعتزاز به، والاعتماد عليه في فهم النصوص، كالعقيدة الإسلاميَّة.

بل إنَّ العقيدة الإسلاميَّة تدعو العقلَ إلى تشغيل طاقاته، وتستثيره ليؤدِّي دورَه الذي خلقه الله من أجله، وتُنبّهه ليتدبَّر، ويتفكَّر، وينظُرَ، ويتأمَّل؛ مدلِّلةً بذلك على أنَّ الدعوةَ إلى الإيمان قامت على الإقناع العقليّ.

ويبدو هذا واضحاً في آيات كثيرةٍ من كتاب الله الكريم، تكرَّرت عشرات المرَّات في السياق القرآني، مَدَحَ الله عزوجل من خلالها مسمَّى العقل، ورفع من شأنه[٢]، من خلال توجيهه إلى النظر، والتفكُّر، والتدبُّر، والتأمُّل؛ مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾[٣]، وقوله عزوجل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾[٤]، وقوله جل جلاله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ

---

(١) ابن قدامة المقدسي، روضة النَّاظر، ١٤٠٤هـ، ١/١٣٧.

(٢) ابن تيمية، النبوات، ١٤٠٥هـ، ص ٩٣.

(٣) سورة البقرة، الآية ٧٣.

(٤) سورة يوسف، الآية ٢.

لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[١]، وقوله عزوجل : ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٢]، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾[٣]، وقوله عزوجل : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾[٤]، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[٥]. وغير ذلك من الآيات التي لا يُمكن حصرها في مكانٍ واحدٍ .

وقد اعتنى الإسلامُ بالعقلِ ؛ فأمر جل جلاله بالمحافظة عليه ، ونهى عن كلّ ما يضرُّ به ، أو يُعطِّلُ عَمَلَهُ .

فحرَّم سبحانه وتعالى المسْكِراتِ والمُخدِّراتِ لما لها من أثرٍ سيئ على عقلِ الإنسان ؛ فالخمرُ سُمِّيَتْ خمراً بسبب تخميرِها العقلَ ؛ أي ستره وتغطيتِه. يُقال : خَمِّر إناءَك ، إذا طُلِبَ منك أن تُغطِّيه[٦] .

من أجل ذا حرَّمها المولى جل جلاله في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ

---

(١) سورة النور ، الآية ٦١ .

(٢) سورة يونس ، الآية ٢٤ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٩٨ .

(٤) سورة ص ، الآية ٢٩ .

(٥) سورة النساء ، الآية ٨٢ .

(٦) الرازي ، ١٩٧٣م ، ص ١٨٩ .

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾[1].

فالخمر في حال سترها للعقل تجعلُ متعاطيها أشبه بالسفيه الذي لا يُحسن التصرُّفَ، أو المجنون الذي لا يشعر بما يرتكب من جرائم تخلّ بالدين والشرف .

وأشدّ من الخمر في الفتك بالعقلِ : المخدِّراتُ، التي تُزيل العقلَ، وتُفسد القلبَ، وتجعلُ متعاطيها يعيش في غيبوبةٍ دائمةٍ، هارباً من واقعِهِ .

من أجل ذا حرَّمها الإسلامُ - كما حرَّم الخمر- ، لجامع السّكْرِ في الاثنين ؛ فرسولنا صلى الله عليه وسلم ((نَهَى عن كُلِّ مُسْكِرٍ ومُفَتِّرٍ))[2]، وأخبر أنَّ ((ما أَسْكَرَ كثيرُهُ، فقليلُهُ حرامٌ))[3]، وأنَّ ((كل مسكرٍ خمرٌ، وكلّ خمرٍ حرامٌ))[4] .

وقد قاس ابنُ تيمية (ت ٧٢٨هـ) حكمَ قليل "الحشيش" على قليل

---

(١) سورة المائدة، الآيتان ٩٠، ٩١ .

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأشربة، باب في النهي عن المسكر . وأحمد في المسند ٤/٢٧٣ .

(٣) سنن أبي داود، كتاب الأشربة، باب في النهي عن المسكر . وسنن ابن ماجه، كتاب الأشربة، باب ما أسكر كثيره فقليله حرامٌ. وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، مرجع سابق ، ٢/٧٠٢، ح ٣١٢٨، وصحيح سنن ابن ماجه، ١٤٠٨هـ ، ٢/٢٤٥، ح ٣٣٩٣ .

(٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن . وكتاب الأدب، باب ما لا يستحيا من الحقّ، وكتاب الأحكام، باب أمر الوالي إذا وجّه أميرين إلى موضع . وصحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب بيان أنّ كل مسكر خمر .

"المسكر"، بجامع مُخامرة كلٍّ منهما للعقل، فقال : (وأمَّا قليلُ الحشيشة المسكرةِ، فحرامٌ عند جماهير العلماء، كسائر القليل من المسكرات)[١].

والمخدِّراتُ كلُّها مُسكرةٌ، والوعيد المترتِّب على تعاطي الخمرِ، هو الوعيد المترتّب على تعاطي أنواع المخدِّراتِ المختلفة ؛ بجامع اشتراك الكُلِّ في إزالةِ العقلِ، ولعمومِ نهيه صلى الله عليه وسلم عن كُلِّ مُسْكِرٍ ومُفتِّرٍ .

فكلُّ ما جاء في وعيد شارب الخمر، يأتي في مستعمِل شيء من هذه المذكورات ؛ (لاشتراكهما في إزالة العقلِ المقصود للشارعِ بقاؤه ؛ لأنَّه الآلةُ للفهمِ عن الله تعالى، وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، والمتميِّز به الإنسانُ عن الحيوان، والوسيلةُ إلى إيثار الكمالات عن النقائص . فكان في تعاطي ما يُزيله وعيد الخمر)[٢] .

ولا ريب أنَّ النهي عن هذه الأشياء المضرَّة بالعقل، من أقوى الأدلَّة على عناية الإسلام به، ومحافظته عليه .

وعلينا أن لا ننسى أنَّ العقل واحدٌ من الضروريَّات الخمس التي عني الإسلام - كسائر الشرائع - بحفظِها .

فالشريعة الإسلاميَّة تدور أحكامها حول حماية خمسة أمور، هي أمَّهات لكلّ الأحكام الفرعيَّة، ويُسمُّونها الضروريَّات الخمس، وهي : حفظ الدين، حفظ النَّفس، حفظ العقل، حفظ العرض، حفظ المال .

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مصدر سابق، ٢٥٤/٣٤ .

(٢) الهيتمي، (د . ت) ، ٢١٢/١ .

وتتجلّى حماية الإسلام للعقل في[١] :

١- تـربيته علـى حُسْـن المعـرفة، والمـنطق العلمـيّ، والفكـر الاستدلاليّ، والمنهج التجريبيّ .

٢- النهـي عـن كـلّ مـا يضـرّ بـه، أو يُعطِّـل وظيفـته ؛ كالنهـي عـن المسكرات والمفترات - كما مرّ - .

٣- الأمر بتغذيته بالعلوم النافعة، واستعماله في الخير .

٤- النهـي عـن الاعـتداء علـيه بـأيّ نـوعٍ مـن أنـواع الاعـتداء ؛ كالضرب ونحوه .

ولقـد جعـل الإسـلامُ الديـةَ كاملـةً في حـقِّ مَـنْ ضَرَبَ آخر، فأذهب عقلَه .

يقـول عـبد الله[٢] ابـن الإمـام أحمـد بـن حنـبل - رحمهمـا الله - : ((سـمعتُ أبي يقول : في العقلِ ديةٌ ؛ يعني إذا ضُرِبَ، فذَهَبَ عَقْلُهُ))[٣] . وهـذا لا خـلاف فـيه بـين علمـاء المسـلمين[٤] ؛ لأنَّ العقـل ((أكـبرُ المعانـي

(١) النحلاوي، ١٣٩٩هـ ، ص ٦٧ .

(٢) هو عبد الله بن أحمد بن محمَّد بن حنبل، أبو عبدالرحمن الشيباني . إمام، حافظ، ناقدٌ، محدِّث بغداد . مات سنة تسعين ومائتين، عن سبعٍ وسبعين سنة . (الخطيب البغدادي، مصدر سابق ، ٣٧٥/٩، ٣٧٦ . والذهبي، السير، مصدر سابق، ١٣/ ٥١٦-٥٢٦) .

(٣) الإمام أحمد، المسائل برواية عبدالله، ١٤٠٨هـ، ص ٤١٧ .

(٤) نصَّ على ذلك الإمام ابن قدامة المقدسي في كتابه "المغني"، ١٤١٠هـ، ١٥١/١٢ .

وأعظمُ الحواس نفعاً ؛ فإنَّ به يتميَّز من البهيمة ، ويَعْرِف به حقائق المعلومات ، ويهتدي إلى مصالحه ، ويتَّقِي ما يضرُّه ، ويدخل به في التكليف . وهو شرطٌ في ثبوت الولايات ، وصحَّة التصرُّفات ، وأداء العبادات ، فكان بإيجاب الدية أحقّ من بقيَّة الحواس))[١] .

فأيّ تكريم أعظم من هذا التكريم !! .

المسألة الثالثة : مجالات العقل ومداركه في الإسلام :

من سمات التكريم التي حظيَ بها العقل في الإسلام ، تلك المجالات التي حُدِّدت له ليخوضَ فيها ، حتى لا يضلّ ، ولا يزيغ ، ولا يتخبَّط في الظلمات إذا ما نأى عنها ، وخاض في غيرها .

والله عزوجل قد (جَعَلَ للعقولِ في إدراكها حدًّا تنتهي إليه لا تتعدَّاهُ ، ولم يَجْعَلْ لها سبيلاً إلى الإدراك في كلّ مطلوبٍ)[٢] .

وعقول البشر يعتريها ما يعتري البشر من ضعفٍ ، وعَجْزٍ ، ونقصٍ .

وهي متفاوتة ، كما قال وَهبُ بنُ مُنَبِّه[٣] (ت ١١٠هـ) : (كما تتفاضَلُ الشجرُ بالأثمارِ ، كذلك تتفاضلُ النَّاس بالعقلِ)[٤] .

---

(١) ابن قدامه ، المغني ، مصدر سابق ، ١٥٢/١٢ .

(٢) الشاطبي ، ١٤٠٥هـ ، ٣١٨/٢ .

(٣) ابن كامل ، أبو عبدالله اليماني الصنعاني . تابعي ثقة . مات سنة عشر ومائة . (الذهبي ، السير ، مصدر سابق ، ٥٤٤/٤) .

(٤) ابن أبي الدنيا ، مصدر سابق ، ص ٤٩ .

ويشهد لتفاوتها : قوله صلى الله عليه وسلم للنِّساء : ((ما رأيتُ من ناقصاتِ عقلٍ ودينٍ أَذهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحازمِ من إحداكُنَّ))[١] ؛ فقد دلَّ بمنطوقه على النُّقصان، وبمفهومه على الزيادة، وهو معنى التفاوت .

وكذا الإجماع دلّ على التفاوت ؛ فـ(كلّ النَّاس يقولون : عقلُ فلانٍ قليلٌ، وعقلُ فلانٍ أكثرُ من عقل فلان، وفلانٌ غيرُ عاقلٍ . قيل : هذا كلُّه يُراد به أكثر استعمالاً وتدبُّراً وتفكُّراً من الآخَر . قيل : فذلك التدبُّر والتفكُّر علامةٌ على كثرة العقل ؛ إذ لو كان مثلَ الآخَر، لما تفكَّر أكثر، ولا تدبَّر)[٢] .

وهذا التفاوتُ يتطرَّق إلى معاني العقل كلِّها، عدا المعنى الثاني ؛ وهو العلومُ التي تُلازم الإنسان العاقل ؛ فتقع في نفسه ابتداءً، ولا تنفكّ عن ذاته ؛ (فإنَّ مَنْ عَرَفَ أنَّ الاثنين أكثرُ من الواحدِ، عَرفَ أيضاً استحالة كون الجسم في مكانين، وكون الشيء الواحد قديماً حادثاً... إلخ)[٣] .

وهذا كلُّه يتساوى فيه بنو البشر .

وتفاوت العقول يدلّ على أنَّ لكلِّ واحدٍ منها حداً وغاية - في إدراك الأشياء - ينتهي إليه، ولا يتعدَّاه .

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم . وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقصان الطاعات . واللفظ للبخاريّ .

(٢) الكلوذانيّ، ١٤٠٦هـ، ١/٥٥-٥٦ .

(٣) الغزالي، مصدر سابق، ص ٦٦ .

فالعقلُ لا يُدرِكُ كلَّ ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، أو أخبر عنه ؛ فمدارِكُهُ ليست شاملة .

من أجل ذا قال الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤٠هـ) : (ليس في السنَّة قياسٌ، ولا يُضرب لها الأمثال، ولا تُدرك بالعقول)[١] .

وقد عقَّب عليه ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) بقوله : (هذا قوله، وقول سائر أئمَّة المسلمين ؛ فإنَّهم متفقون على أنَّ ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم لا تُدركه كلّ النَّاس بعقولهم، ولو أدركوه بعقولهم لاستغنوا عن الرسول)[٢]، والله عزوجل يقول : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[٣] .

والعلوم من حيث إدراك العقل لها تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ - (قسم ضروريّ لا يُمكن التشكيك فيه ؛ كعلم الإنسان بوجوده، وعلمه بأنّ الاثنين أكثر من الواحد، وأنَّ الضدَّين لا يجتمعان، ...)[٤] .

٢ - (وقسمٌ نظريّ يُمكن العلم به، ويُمكن أن لا يُعلَم بهِ ؛ وهي النظريَّات . وذلك الممكنات التي تُعلم بواسطة، لا بأنفسها. إلاَّ أن يُعْلَمَ بها

---

(١) ابن أبي يعلى، (د . ت) ، ٢٤١/١ .

(٢) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، مصدر سابق، ٢٩٧/٥ .

(٣) سورة الإسراء، الآية ١٥ .

(٤) الشاطبي، مصدر سابق، ٣١٨/٢ .

إخباراً)[١] .

٣- (وقسمٌ لا يعلمه البتة ، إلاَّ أن يُعْلَمَ بهِ ، أو يُجْعَلَ له طريقٌ إلى العلم به . وذلك كعلم المغيَّبات عنه ؛ كانت من قبيل ما يعتاد علم العبد به أولا ؛ كعلمه بما تحت رجليه ، إلاَّ أنّ مغيبه عنه تحت الأرض بمقدار شبر ؛ وعلمه بالبلد القاصي عنه ، الذي لم يتقدَّم له به عهد.فضلاً عن علمه بما في السماوات ، وما في البحار ، وما في الجنَّة أو النَّار على التفصيل . فَعِلْمُهُ بما لم يُجعَل له عليه دليلٌ غيرُ ممكن)[٢] .

ويدخل في هذا القسم - الأخير - أغلبُ مسائل الاعتقاد ؛ فلا تُعْلَمُ إلا عن طريق الخبر ؛ إذ لا يُمكن للعقول أن تستقلّ بمعرفة هذه المسائل ، لولا مجيء الوحي بها ، وبأدلّتها العقليَّة . وما على العقل إلا فهمُها وتدبّرها .

(وأيضاً فإنَّ كثيراً من مسائل الاعتقاد - بعد معرفتها ، والعلم بها عند العقول - لا تُدْرِكُ العقولُ حقيقَتَها وكيفيَّاتِها)[٣] .

ومن الأمثلة على ذلك :

١- الروح ، التي ليست من مدارك العقل ؛ لذلك لَّما سألت يهودُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عنها ، لم يُبيِّنْ لهم ماهيَّتها ، بل قال :

(١) الشاطبي ، مصدر سابق ، ٣١٩/٢ .
(٢) الشاطبي ، مصدر سابق ، ٣١٨/٢ ، ٣١٩ .
(٣) ابن حسن ، مرجع سابق ، ١٧٨/١ .

هي من أمرِ ربِّي :

فقد أخرج الإمامان البخاريّ ومسلمٌ في صحيحيهما[١] أنَّ اليهودَ مرّوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو متكئ على عَسِيبٍ، فقال بعضهم لبعضٍ : سلُوه عن الروحِ، فسألوه . فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يردّ عليهم شيئاً، حتَّى نزل عليه الوحي : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[٢].

فهذه الروح التي تُوجد فينا، والتي توصف بصفات متعدِّدة، منها: الوجود، والحياة، والقدرة، والسمع، والبصر، والصعود، والنزول، وغير ذلك . وهي مخلوقةٌ، ومع ذلك فالعقول قاصرةٌ عن معرفة كيفيّتها، وتحديدها ؛ لأنَّهم لم يُشاهدوا لها نظيراً، كما قال ابن تيمية : (والنَّاس لـمَّا لم يشهدوا لها نظيراً، عَسُرَ عليهم التعبير عن حقيقتها)[٣] .

٢- أمَّا عن صفات الله عزوجل، فللعقلِ دورٌ في تفهُّمِ معانيها ؛ لأنَّا (بعقولنا نَعْتَبرُ الغائبَ بالشاهِدِ، فتبقى في أذهاننا قضايا عامَّة كليَّة ، ثمَّ إذا خوطِبْنا بوصفِ ما غاب عنَّا ، لم نفهمْ ما قِيلَ لنا إلا بمعرفةِ المشهودِ لنا)[٤].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب : "ويسألونك عن الروح" . وصحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين، باب سؤال اليهودِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن الروح .

(٢) سورة الإسراء، الآية ٨٥ .

(٣) ابن تيمية، تفسير سورة الإخلاص ، ١٤٠٨هـ ، ص ٢٠٢ .

(٤) ابن تيمية ، شرح حديث النزول ، ١٤١٤هـ ، ص ١٠٤ .

وأمَّا حقيقةُ الصفاتِ وكيفيَاتُها : فلا يُدركها العقل، مع أنَّه لا يحيلها ؛ إذ كيف يُدركُ ما يفتقِرُ إلى تصوّرِه .

ونحن لا نعلم كيفيَّة صفات ربِّنا عزوجل ؛ (إذ العلمُ بكيفيَّة الصفة يستلزم العلم بكيفيَّة الموصوف، وهو فرعٌ له، وتابعٌ له . فكيف تُطالبني بالعلم بكيفيَّة سمعه، وبصره، وتكليمه، واستوائه، وأنت لا تعلم كيفيَّة ذاته ! . وإذا كنت تُقرّ بأنَّ له ذاتاً حقيقيَّة ثابتةً في نفس الأمر، مستوجبة لصفات الكمال، لايُماثلها شيء ؛ فسمعه، وبصره، وكلامه، ونزوله، واستواؤه ثابتٌ في نفس الأمر، وهو متّصفٌ بصفات الكمال التي لا يُشابهه فيها سمعُ المخلوقين، وبصرهم، وكلامهم، ونزولهم، واستواؤهم)[١] .

لذلك لـمَّا جاء رجلٌ إلى الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه ؛ إمامِ دار الهجرة، فقال له : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝ ﴾[٢]، كيف استوى ؟ أطْرَقَ الإمام مالكٌ برأسِه، وعَلَتْهُ الرحَضَاءُ[٣]، ثمَّ رَفَعَ رأسَهُ، وقال : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝ ﴾ كما وَصَفَ نفسَه، فلا يُقالُ : كيفَ، و"كيفَ" عنه مرفوعٌ، وقال للسائلِ: أنت صاحبُ بدعةٍ، وطلبَ من أصحابِهِ أن يُخرجوه من مجلسِهِ[٤].

---

(١) ابن تيمية ، الرسالة التدمريَّة ، ١٤٠٥هـ ، ص ٤٤، ٤٥ .

(٢) سورة طه، الآية ٥ .

(٣) الرّحَضاءُ : عرقٌ يغسل الجلدَ لكثرتِهِ . (الزبيديّ ، ١٣٠٦هـ ، ٣٢/٥) .

(٤) البيهقي، ١٤١٣هـ، ٣٠٤/٢، ٣٠٥، ح٨٦٦. ووصف الإمام الذهبي في كتابه "العلوّ، ١٣٨٨هـ، ص ١٠٣" هذا الإسناد بأنَّه صحيح، وقال : "هذا ثابتٌ عن مالك" .

فسببُ إنكار الإمام مالك - رحمه الله - على السائل، كونه أراد أن يخوض بعقله، ما ليس في متناول عقله؛ وهو إدراك كيفيَّة الصفة؛ لأنَّ الربَّ جل جلاله لا يُحيط به علماً أحدٌ من خَلْقِهِ.

٣- وكذلك ما أخبر الله سبحانه وتعالى عنه من أمور الآخرةِ؛ كالجنَّة ونعيمها، والنَّار وجحيمها، وغير ذلك من المغيَّبات، ليست من مدارك العقل، ولا في متناوله، مع أنَّ العقل يُقرّ بها، ولا يُحيلها.

ولنأخذ على ذلك مثالاً بنعيم الجنَّة؛ فالله سبحانه وتعالى أخبرنا عمَّا في الجنَّة من المخلوقات؛ "من أصناف المطاعم، والمشارب، والمناكح، والمساكن؛ فأخبرنا أنَّ فيها لبناً، وعسلاً، وخَمْراً، وماء، ولحماً، وفاكهة، وحريراً، وذهباً، وفضَّة، وحوراً، وقصوراً، وقد قال ابن عبَّاس - رضي الله عنهما - : ليس في الدنيا شيءٌ ممَّا في الجنَّة، إلاّ الأسماء[(١)]"[(٢)].

أما الكيفيَّة، فمختلفة، ولا طاقة للعقل في إدراك كيفيَّة هذا النعيم المقيم، الذي أعدَّه الله للمتّقين، مع أنَّ وجودَه لا يتعارض معه بحال.

ونحنُ إذا تدبَّرنا عامَّة ما جاء في أمر الدين؛ - من ذكر صفات الله عزوجل، وما تعبد النَّاس باعتقاده، وكذلك ما ظهر بين المسلمين وتداولوه بينهم، ونقلوه عن سلفهم، إلى أن أسندوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ من ذكر عذاب القبر، وسؤال الملكين، والحوض، والميزان،

---

(١) أثر ابن عباس أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره، مصدر سابق، ١/٢١٠.

(٢) ابن تيمية، الرسالة التدمريَّة، مصدر سابق، ص ٤٦.

والصراط، وصفات الجنَّة، وصفات النَّار، وتخليد الفريقين فيهما -، أمورٌ لا تُدرَكُ حقائقُها بعقولنا، وإنَّما ورد الأمر بقبولها والإيمان بها. فإذا سمعنا شيئاً من أمور الدين، وعقلناه، وفهمناه، فلله الحمد في ذلك والشكر، ومنه التوفيق. وما لم يمكنَّا إدراكه وفهمه، ولم تبلغه عقولنا، آمنَّا به وصدقنا..."[١].

وهذا راجعٌ إلى أنَّ نصوص الكتاب والسنة لا تتعارض مع العقل الصريح.

يقول ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ): (فيأخذ المسلمونَ جميعَ دينهم - من الاعتقادات، والعبادات، وغير ذلك - من كتاب الله، وسنَّةِ رسولِهِ، وما اتفق عليه سلف الأمّة وأئمتها. وليس ذلك مخالفاً للعقل الصريح؛ فإنّ ما خالف العقل الصريح فهو باطلٌ. وليس في الكتاب والسنَّةِ والإجماع باطل. ولكن فيه ألفاظ قد لا يفهمها بعضُ النَّاس، أو يفهمون منها معنى باطلاً، فالآفةُ منهم، لا من الكتاب والسنة)[٢].

وإذا كان كذلك، فإنّ العقلَ مُطالَبٌ بالتسليم للنصّ الشرعيّ الصريح، ولو لم يفهمه، أو يُدْرِكِ الحكمةَ التي فيه؛ لأنَّ الشارع نصَّ على كلِّ ما يَعْصِمُ من المهالك نصًّا قاطعاً للعذر، فلا حجَّة لأحدٍ بعد بيانه، كما ذكر ابن تيمية (ت ٧٢٨) مستدلاًّ على ذلك بآياتٍ كثيرةٍ، منها[٣]: قوله

(١) السيوطي، ١٣٦٦هـ، ص ١٨٢.
(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مصدر سابق، ١١/٤٩٠.
(٣) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، مصدر سابق، ١/٧٣، ٧٤.

عزوجل : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾[١]، وقوله : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾[٢]، وقول أبي ذر الغفاري رضي الله عنه : (لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما يَتَقلَّبُ في السماء طائرٌ، إلا ذكرنا منه علماً)[٣]، وقول سلمان الفارسيّ رضي الله عنه حين قيل له : قد علَّمكم نبيُّكم كلَّ شيءٍ حتَّى الخِراءة[٤] ؟ : (أَجَلْ ؛ لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائطٍ أو بولٍ، أو أن نستنجيَ باليمين، أو أن نستنجيَ بأقلَ من ثلاثة أحجارٍ، أو أن نستنجيَ برجيعٍ أو بعظمٍ)[٥] .

فهل يُعقل أن يُعلِّمهم صلى الله عليه وسلم هذه الأمور، ويُهمل ما كان أعظم منها ؟!

والجواب لا . وفي هذا دليلٌ على أنَّه صلى الله عليه وسلم ترك أمَّته على مثل البيضاء، فوجب الامتثال لأمره، والانقياد لحكمه .

وعلينا أن لا ننسى أنَّ أوَّلَ ذنبٍ عُصِيَ الله سبحانه وتعالى به، كان سببه عدم الامتثال لأمر الله عزوجل ؛ وذلك حين أمر الله سبحانه وتعالى إبليسَ بالسُّجودِ لآدم عليه السلام : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ

(١) سورة التوبة، الآية ١١٥ .
(٢) سورة المائدة، الآية ٣ .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/٢١٠، ح ٢١٤٢٩، مسند "أبي ذر الغفاري".
(٤) أي : حتى آداب قضاء الحاجة ؛ كما هو واضحٌ من تفسير سلمان رضي الله عنه .
(٥) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب الاستطابة .

فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ﴾[١]، لم يمتثل الأمر ؛ فكان أوَّل مَنْ قاسَ[٢]، إذ رَكَنَ إلى عقلِهِ، فلم يهدِهِ إلى السبب الذي لأجله يسجد الفاضل للمفضول - على حسب ظنِّه -، فعصَى، فعُوقِب : ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾[٣]، وأيضًا ص : ٧٦] .

وهذه أوَّل شبهةٍ وَقَعَتْ في الخليقة ؛ كما قال الشهرستاني[٤] (ت ٥٤٨هـ) : (اعْلَم أنَّ أوَّل شبهةٍ وقعت في الخليقةِ : شبهةُ إبليسَ لعنه الله، ومصدرها استبداده بالرأي في مقابلة النصّ، واختياره الهوى في معارضة الأمر، واستكباره بالمادة التي خُلِقَ منها ؛ وهي النَّارُ، على مادة آدم عليه السلام ؛ وهي الطين)[٥] .

فما أخبرنا عنه الله عزوجل في كتابه، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، آمَنَّا به وصدَّقْناهُ، وما سَكَتَ عنه من أمر الغيبِ - ويدخل في ذلك ذات الله سبحانه وتعالى، وأسماؤه، وصفاتُه -، لم نشغل عقولنا في البحث عن كيفيّته، أو تكلُّفِ ما لا يُقدَرُ عليه ؛ لأنَّ عقول البشر لا تستقلّ

---

(١) سورة البقرة، الآية ٣٤، وسورة الإسراء، الآية ٦١، وسورة الكهف، الآية ٥٠، وسورة طه، الآية ١١٦ .

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مصدر سابق، ٦/٣٠٠ .

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٢ .

(٤) هو محمَّد بن عبد الكريم، أحد أئمة الأشعريَّة . له تصانيف، منها : الملل والنحل، ونهاية الإقدام . توفي سنة ٥٤٩ هـ. (الذهبي، السير، مصدر سابق ٢/٢٨٦-٢٨٨) .

(٥) الشهرستاني، ١٩٧٧م، ص ١٤ .

بمعرفة أصول الدينِ على سبيل التفصيلِ، لعَجْزِها وقصورِها، ولو كانت تستقلُّ بمعرفة ذلك، لما أرسلَ الله الرُّسلَ، وأنزل الكتبَ .

يقول السفاريني[1] (ت ١١٨٨هـ) : (لو كانت العقولُ مستقلَّةً بمعرفة الحقِّ وأحكامِهِ، لكانت الحجَّةُ قائمةً على النَّاس قبل بَعْثِ الرّسل، وإنزال الكتب . واللازم باطلٌ بالنصِّ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[2]، فكذا الملزوم)[3] .

لكن ليس النفي على إطلاقِهِ، بل نقولُ : لا تستقلُّ العقولُ على سبيلِ التفصيلِ. أمَّا على سبيل الإجمالِ ؛ فإنَّ الله سبحانه وتعالى فَطَرَ الخلقَ على مِلَّةِ التوحيدِ :

يقول ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) : (.. الله سبحانه فوق مخلوقاته، عالٍ عليها ؛ قد فَطَرَ الله على ذلك العجائز، والأعراب، والصبيان في الكُتَّاب، كما فطرهم على الإقرار بالخالق تعالى... والرُّسُل بُعِثُوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتحويلِ الفطرة وتغييرها)[4] .

والله سبحانه وتعالى قد وَهَبَ عباده عقولاً يهتدون بها إلى الحقِّ .

---

(١) هو محمَّد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبليّ . شيخٌ ، إمامٌ ، صاحب التآليف الكثيرة . ولد بقرية "سفارين" من قرى "نابلس" سنة ١١١٤هـ، وتوفي سنة ١١٨٨هـ . (الزركلي، مرجع سابق ، ٦/٢٤٠) .

(٢) سورة الإسراء، الآية ١٥ .

(٣) السفاريني ، ١٤٠٥هـ ، ١/١٠٥ .

(٤) ابن تيمية ، الجواب الفاصل ، مجلة البحوث الإسلامية ، ع ٢٩ ، ص ٣٠٣-٣٠٥ .

والوصول إلى الحقّ يُمكن من طريقين ؛ طريق الوحي ، وطريق التجربة التي تجمع بين الحسّ والعقل .

وقد أشار القرآن الكريم في غير ما آية إلى الطريقة الثانية ، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[1] .

(فبالسير في الأرض تتكوَّنُ الصور الحسيَّة لآثار السابقين ؛ من خراب الديار ، ودروس العمَّار ، بعد أن كانوا أكثر قوَّةً وجمعاً . وهذا هو عطاءُ الحسّ ، ثمَّ تأتي مهمَّة العقل ، وذلك بالنظر في هذا العطاء الحسِّي ؛ فيفحصه مرتّباً له ، ورابطاً لأجزائه بعضها ببعض ؛ يقيس الغائب على الشاهد ، ويُلحق الشيءَ بنظيره ، والفرعَ بأصله ، والملزوم بلازمه ، إلى غير ذلك من الأعمال العقليَّة ، ثمَّ يخرج بالنتيجة ؛ وهي صلاح الدار الآخرة ، وتقديمها على الدار الفانية)[2] .

وهكذا تبدأ معطيات الحسّ تردُ على العقل عبر رسله - السمع ، والبصر ، ونحوهما - ، ويبدأ العقل بأداء دوره في التفكُّر فيها ، إلى أن ينتهي إلى نتيجة تهديه إلى الحقّ .

وبهذا يتّضح أنَّ الشريعة الإسلاميَّة لم تُهْمِلِ العقلَ ، ولم تلغِ دورَه ، ولم تأمرْ أتباعَها بتعطيلِهِ وعدمِ تشغيلِهِ ، كما فعلت باقي الديانات المحرَّفة ،

---

(١) سورة يوسف ، الآية ١٠٩ .

(٢) ابن حسن ، مرجع سابق ، ١/١٦٥ .

التي كانت تأمرُ أتباعَها بالتسليمِ الأعمى .

فالحمدُ لله الذي هدانا لهذا الدين ، وجَعَلَنا من أمَّة محمَّدٍ سيِّد الأنبياء والمرسلين .

وصلى الله على نبيِّنا محمَّدٍ ، وعلى آله وأصحابِهِ أجمعين .